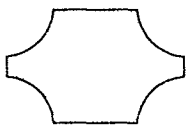

كان أماً لأبيه

لوريس الراعي

ما إن بان مصباح النهار حتى طلبوا من أحدهم أن يقرع جرس الكنيسة. فقد توفّي «الختيار» بعيْدَ منتصف ليلة أمس... وراح الشّاب يركض غافلاً عن سبب سرعته وهو الذي كثيراً ما كان يجلس قرب البيت ثلاث ساعاتٍ تقريباً، فقرّر أن يُبطئ ولكنه لم يجد نفسه إلا راكضاً في طلب مفتاح الكنيسة من الخورية.

قفز الدرج ثلاثاً. جهّز المفتاح قبل أن يصل، فتح الباب، رسم إشارة الصليب على صدره ثلاث مرات أو أكثر، قبل أن يفكّ الحبل. ثلاث ضربات. جاؤوا سريعاً كما الفرح. تسلّق القبّة وأمسك بمضرب الجرس: واحد اثنان ثلاثة. أخذ نفساً وهو ينظر ناحية بيت الختيار ثم ضرب من جديد: واحد اثنان ثلاثة، واحد اثنان ثلاثة...

* * *

مات ختيار الضيعة الذي تتذكّره أكثرية أهل القرية على هذه الشاكلة. فمنذ أكثر من ربع قرن وعبارات من نوع «ما بنعرفو إلا هيك»، أو «لما تزوّج كان فوق السبعين» أو «سبحان الله! مين كان يتصوّر إنو بشوف ابنه شاب؟» أو «لأن هالغريبة مرتو إتكلت عالفوقاني، وأخذت هالختيار الله رزقها بها الصبي لآخرتها»... قد كانت من الأقوال التي ابتُذلت لكثرة ما قيلت.

ابنه في العشرين وهو اجتاز المئة سنة منذ مدّة... وتجمّع في ذاكرة الكثيرين ما كانوا يفعلونه في آخر يوم من أيام «المستقرضات» والمسمّى «الأرمل»، حيث يأخذ أعمَرُ أرامل القرية مفتاحَ الشتاء إلى البحر، كيف كانوا يتوافدون إلى بيت أبو جمال وهو ما يزال أرمل ليسألوه أخذ المفتاح فإذا غادر القرية يومهااستبشروا خيراً بعد طول شتاء. وإذا عادت وأمطرت قال إنّه رمى المفتاح قريباً لأنهم لم يهتموا به خلال فصل الشتاء، فهم لا يستأهلون أن يتحمل المشاق من أجلهم... ثم لم يلبث أن تزوّج ثانية وأصبح بعد فترة «الختيار» ولم يزل كذلك.

ويضحك كثيرون وهم يصورون حركاته مع خطوات فصل الربيع الأولى وطريقة حسابه للتقويم الشرقي، إذ يضيف إلى تاريخ الروزنامة ثلاثة عشر يوماً. ذاك أن أيام «المستقرضات»[1] السبع هي عيده وهو يردّد الحكاية الآتية كل عام:

احسب من قبل آخر شباط بأربعة أيام، وابدأ ثلاث مشايخ ـ ختيارية ـ ثم ثلاث عجائز وفي اليوم السابع يأتي الأرمل الذي تجعله كل قرية من سكانها، بخلاف المشايخ والعجائز الذين تتقاسمهم القرى دائماً مع قريتين تقعان شرقها. الشيخ هو كبير السن، وعلى هذا يكون اليوم الأول للمستقرضات شيخ القرية «ش» والثاني شيخ «ع» والثالث شيخنا، وكذا، فاليوم الرابع عجوز «ش» والخامس عجوز «ع» والسادس عجوزتنا... ثم يأتي الأرمل... ويضيف مسمّياً بعض العجائز من قريتي «ش» و «ع» بأسمائهن: «والله اليوم أم فلان امرأة فلان بيضتها» ـ أي أن الثلج تساقط في يومها ـ أو «فلان شيخ «ع» أو «ش» ما يزال عزمه قوياً خاصة إذا جاء اليوم عاصفاً».. مع ما يتبع ذلك من مشاحنات: «فلان أكبر من فلان...» لتنتهي بـ «لا تجقمروا أنا يللي بقولو صحّ!».

* * *

مات الختيار! أتأكّدتُم أنّه مات أم أنه ينتفض، كعادته، وهو يحرك فمه طويلاً قبل أن يفتح عينيه؟... لقد مات ومشواره الأخير إلى ساحة القرية كان بمثابة الوداع لكل هذا العمر وما حمله... توقف في الساحة واستعرض حدودها ثم لعن كل من ضيّق عليها وسأل عن الحجارة الكبيرة التي كانت موضوعة كمقاعد وتحرّى عن الذي قطع الشجرة فوق العين وقطع عمره، ثم تضاحك والشبانَ قبل أن يلحق عكازه عائداً إلى البيت...

وذكرت زوجته أن المرحوم حدّثها عن زوجته الأولى وعن أولاده وسألها عن موعد زيارة ابنهما للقرية، وأردفت: نهار البارحة خرج لأكثر من ساعة، وعندما عاد تفقّد نقير الدجاج بعصاه، وعندما وجده مملوءاً بالماء، عافاني لأنه كان يكره أن أضع ماء الدجاج بوعاء بلاستيكي، وسألني إن كان أبو يوسف قد ردّ الأزمة[2] التي استعارها لنكش «حاكورته». وما لم تقله أم الصبيّ وتتذكّره جيداً هو أنه أنّبها على ذلك وقال لها: «أنا بَعْدني طيب، شايفك ما بتردّي طلب لبو يوسف!»

ـ «كان بركة الضيعة، وشوما عملنا مابنكفيه!!».

وساحة القرية، القريبة من بيته، تشهد أن حركة المراهقين والأطفال

---

(١) يذكر الدكتور أنيس فريحة في كتابه **القرية اللبنانية حضارة في طريق الزوال** وفي حديثه عن «المستقرضات» أنّهم يتوقّعون في أواخر شهر شباط وأوائل آذار عاصفةً شديدة عنيفة باردة. وفي المناطق العالية يتوقعون سقوط ثلج كثير وهبوب رياح عاصفة باردة. ويسمّون هذه الأيام «عيانة المستقرضات». وهم يعتقدون أن شهر شباط شهرُ شؤم على العجائز يجهد في القضاء على كل طاعن في السن. ويروون خرافة شائعة في جميع أنحاء لبنان (وفلسطين وسوريا) عن عجوز أبدت فرحها عند نهاية شهر شباط فقالت: «راح شباط وبقفاه مخباط»، فسمع شباط استهزاءها بمقدرته على القضاء عليها، فعزم على استقراض بضعة أيام من ابن عمّه آذار ليميت العجوز برداً... وللمستقرضات شبيه بها في الأدب العربي القديم: برد العجوز: صن وصنبر ووبر الآمر والمؤتمر والمعلّل ومطفئ الحمر.

(٢) نوع من المعاول.

وهم يجمعون الكراسي من بيوت القرية إلى بيت الختيار كانت الأسرع بين مثيلاتها؛ والسيارات التي كانت تنتظر حتى الانتهاء من كتابة أوراق النعي إلى القرى المجاورة إضافة إلى تلك التي ذهبت لتجلب «الصبي» من عمله والأخرى التي ذهبت لجلب التابوت كانت الأكثر منافسةً فيما بينهما، خاصة وأن ابنه الأكبر ـ الذي يبلغ حوالي الثمانين ـ منقطع عن القرية وعن والده منذ دهر، فهو بالكاد يذكره، ولولا أن الناس يدعونه بأبي جمال لنسي أن له ابناً ـ وربما أكثر من ولد ـ من زوجته الأولى. ولا تنسى ساحةُ القرية أن تشهد أن أكثرية الناس كانت تخطر مبتسمة لا شماتة ولا فرح. وقد أيقنوا أن ختيارهم قضى هذه المرّة بعد أن احتال على عزرائيل مراراً، فصمد دون أن يغيّر من عادته فظل ذاك الكبير الذي وجد حوله كلَّ اناس القرية بفريقيها المتخاصمين، وقد خصّوه بخطوة هي مزيج من عاطفة المسامحة والاحترام المبطنة بالاحتراز من لسانه والاهتمام به وبابنه وهو يكبر سنة بعد أخرى حتى غدا رجلاً خفيف الروح، جميل المعشر؛ وكثيراً ما قالوا: اسم على مسمّى جميل والاسم عليه.

* * *

كان كل شيء قد جُهّز عندما وصل جميل وصرخ بأعلى صوته سائلاً والدته عن الذي أصاب والده، وكيف توفّي؟ وأين كانت؟ واندفع حتى وصل إلى الجثمان المسجّى وبدأ بتقبيله ناحباً.

ـ «كتّر خير الله، شو أبوك شاب؟ ولَوْ أنت تتصرف مثل النسوان ونحن بعمرنا ما شفنا دمعتك!»

قالتها بعض النساء من النادبات اللواتي لم يعددن عليه بأكثر من:

ـ «يا بو جمال سلّم على فلان وقلْ له...»، وبعض النساء وضعن بعضَ الزهر في التابوت قائلات:

ـ «الله يرحمك، وما أحلى هالآخرة!».

وها هنّ يخضن في أحاديث جديدة بانتظار موعد الدفن... ولكن – وسط الصراخ والبكاء الذي بدأ به جميل وبعد فشل محاولات الرجال لإخراجه إلى بيت أحد جيرانه حيث يجلس الرجال – توقفت الثرثرةُ ليعود للموت هيبته بعدما وسّعوا لجميل مكاناً قرب والده وقبالة والدته. وبحركة من بعضهن بدأ الندب والزعيق وإن لم يخالطه دمعٌ كثير، وراح الجميع يقولون على لسان الميت:

ـ شيلوني وحطوني وعند «جميل» ودّوني.

وإذا رخصت هالبيعة على القبر ودّوني»

ويدور التعداد على الأهل والجيران وسط ترحيب الجميع فيه.

ـ أهلاً وسهلاً... بقلبنا منحطّو.. هو جوّه ونحنا برّه...

وجميل يتأوّه: «آخ خ خ...» ويتمتم كلمات لا تُسمع، وأمه، وهي تحاول أن تفيض دمعها، تتطلع إليه مردّدةً:

ـ بسلامتك يا أمي! الحمد لله صرت زلمة؛ وبيّك، الله يرحمو أكل عمره!.

«رحت عالبحر لإرمي شباكي

لقيت البحر شي ضاحك شي باكي

سألني الموج يا أم جميل شو باكي؟

قلت لهم: مفارقة أغلى الأحبابِ».

مَوّال قالته إحدى النادبات من غير أن تردّ عليها أخرى حتى عاد نحيبُ جميل يعلو، وعندها قالت إحدى جاراته:

ـ حسنة عن شبابكم، يللي بتعرف، تقول: «هلك الشاب من البكي!».

واستغربت أم جميل حال ابنها وقد حسدها عليه الجميعُ لكياسته ووعيه المبكر ـ فهو مذ كان في الثامنة تقريباً رجل البيت. ونهار العيد يبقى في المنزل ويستقبل الزوّار، ولا يسمح لأحد بأن يلعن أباه حتى ولو ممازحاً؛ يهتم بالقسم الباقي من الأرض ـ بعد أن باع أبو جمال أكثرها ـ ويذهب لتفقد أهله في عملهم فيركب على الجحش ويمسك الرسنَ جيداً ثم يوقفه بالقرب من حافة ما حتى يصعد والده وراءه، وفي أكثر الأحيان يركب الوالد ويجر جميل البهيمة بتأنّ، بينما تتهادى أمُّه بعيداً وقد حملت على رأسها أو في سلّتها شيئاً ما... وعلى هذا فجميل يكون مع الحطّاب والحصّاد وشاري الغلة ويحسب الأموال التي يجمعونها والتي تأتيهم ويهتم بطريقة إنفاقها بعد أن تعارفوا على وضعها في محفظة تحت فراش الوالد المستلقي على سريره في غالب الأحيان... وعلى هذا فهو لم يطلب الحماية مادام قوياً ومهيباً بين أقرانه ومميّزاً عند أساتذته الذين يكبرون فيه صدقه وذكاءه ناهيك عن تهذيبه...

* * *

مع دخول الكهنة إلى غرفة الميت بدأت الصلاة، وشرعت النساءُ في الخروج ليوسعن لبعض الرجال، الذين ما لبثوا أن غطّوا التابوت وحملوه بعد أن أمسك بضعة شبان بجميل وهو يسير في موكب الجنازة ولسان حال الكثيرين يقول:

ـ «جميل زوّدها شوي. يللي من عمر بيّو تخوّا بالقبر من زمان، يشكر الله يللي مات على فراشه، وضلّ لآخر ساعة عقلاته معه».. وكثيرون من آل القرية راحوا يتهامسون وهم يراقبون الفتاة التي يهواها جميل وكيف كانت دموعه تنحدر بارقةً كلما وقع نظره عليها، إلى أن انعطفت إلى منزلها وقد دفعتها أمها خوفاً من فضيحة بين سكان القرى المجاورة...

كصغير غفا بعد أن بكى كثيراً. ماتزال شهقة جميل عالية الصوت، وبعضُ نظرات الاستياء بدأت تظهر على وجه أختيه اللتين أتتا مع رهط من أولادهما وأحفادهما ـ بعضهم أكبرمن جميل ـ خاصة وقد أثنى الكاهن على جميل لِبرِّه بوالده بعد أن نسيه أبناؤه الآخرون ـ يقصد الذكور ـ حتى إنه لم يعد يعرف عنهم وعن أولادهم شيئاً.. إلى أن قالت له التي

تجلس بجانبه:

ـ «خلصنا بقا، راح تضحك علينا الناس، أولاد بيّك يمكن ماتوا، جرّصتنا يوه!!!».

اقترح أحدُهم على الكاهن أن لا يرافقهم جميل إلى المقبرة... ولكن جميلاً تأهّب واقفاً مع انقطاع النور عن الميت، ومشى في مقدمة الموكب وقد تعلقت عيناه بالأكفّ المرفوعة، حتى بلغوا المقبرة. فأكمل الخوري جنازته، ثم أخذ الرجال في تعزية جميل وبعض من أقاربه، قبل أن يعودوا ليصطفّوا في باحة الكنيسة لكي يُتاح لجميع الرجال واجبُ التعزية قبل أن يأخذوا طريقهم إلى البيت لتعزية الأرملة وبنات المرحوم ولجلب نسائهم، بعد أن عزّين وشربن القهوة خلال وجود الرجال في المقبرة..

الطعام كثير وقد توزّعت الجاراتُ صنع الغذاء في منازلهن وجلبنه إلى بيت الختيار. وما إن بدأ جميل بالأكل حتى عاود النّدب واللعثمة شأن ثمل لا يقرّ بسكره ويدّعي الصحو وسط عبارات الاستنهاض من حوله:

ـ كان أملنا منك غير هيك، ولو، إنت شيخ شباب!.

وجميل مازال يسأل بتفجّع:

ـ «كيف متت يا بيي؟ كيف تركتك لوحدك؟ ليش طلعت من البيت وأخذت برد؟»..

ومع غياب الشمس بدأت مجموعة الرجال والنساء تنسحب من مجلس العزاء وواحدهم يقول للآخر: «اتركوهم يرتاحوا، الظاهر أنّ جميل تعبان أكثر من غيره!» بينما أخذت بعض النسوة يتشاورن مع الأرملة وبنات المرحوم عن زيارة القبر في الصباح الآتي ليتفقن على السادسة صباحاً ويعلمن الغائبات منهن...

مجيء بعض الشباب والشابات خلال السهرة دفع بأم جميل إلى إيقاظ ابنها الذي بدا هادئاً: يقدّم القهوة لهذا، ويطلب إبريق الماء لذاك، ويسأل عن صحة الأولاد والأهل وهو يغتصب البسمة ويتطلّع ناحية سرير والده وقد جفل عندما وجد مكانه بعضَ الكراسي، مردّداً بين الحين والآخر عبارة: «تعيش ويرحم موتاك» كلما ذكر له أحدهم فاجعة موت لأحدهم وأتى على ذكر المرحوم أبو جمال.

صباحاً أخذت أم جميل تعمل على إيقاظ نساء البيت اللواتي سيذهبن مع المجموعة لزيارة القبر بعد أن أشعلت فحماً وجلبت معها بخوراً.. وهكذا تقاطرت النساء على امتداد الطريق المؤدي إلى «المقابر» بينما بقيت في البيت تلك الصبية التي جاءت مع أمها باكراً ولم تذهب «للزوارة» بعدما مُنِعت بالأمس من حضور الجنازة وانعطفت عائدة إلى منزلها... وها هي تبتسم بخفر وتقول: لا عليكم سأبقى هنا لتحضير القهوة وترتيب المنزل.

هاهن ينطلقن بثيابهن السوداء كشلعة الماعز العائدة إلى سخالها في خط طويل:

ـ «على مهلكن، انتظروا شوي!».

قالتها إحدى بنات المرحوم وقد لاحظت أن بعض النساء مازلن يتوافدن من القرية، وهكذا مضين يمشين رويداً حتى إذا قاربن المقبرة لمحن شخصاً يبكي، وقد جلس القرفصاء منتحباً ومما سمعنه يقول:

ـ «آخ أنا آخ، كل الولاد بيهربوا من آبائهم لمّا يضربوهم، وأنا كنت أعطيك العصا حتى تضربني».

ـ «كل الولاد بتدافع عن أمها لمّا جوزها بيصرخ عليها، بصمت أما أنا فكنت انبسط وروح خبّر إنو أبوي صرّخ على أمي، وزيد إنو ضربها»..

ـ «آخ يا بيّي آخ، من وقت يللي خلقت وأنا فزعان عليك تمرض أو حدا يتعدّى عليك.. كيف متت قبل ما تشوفني رجعت عمرت البيت، وليش متت بعدما صار بإمكاني أخدمك، أنا تركت البيت بس وصّيت أمي فيك كتير...».

ـ «يا بوه، والله ما كنت تضايقنا، ومحلّ تختك كثير فاضي وميت.!».

ووقف جميل عندما شمّ رائحة البخور التي وُضعت لتوّها فوق الفحم، ثم تطلّع ناحية النساء اللواتي عاودن تقدمهن: «صباح الخير يا بو جمال... جميل كمان جايي لعندك»...

عاد جميل من حيث جاء، من غير أن ينتظر النساء، فوصل قبلهن إلى المنزل حتى إذا سمع حفيفهن وهن مقبلات نحو البيت استعد للقائهن: «نكافئكن بالأفراح».

وبينما كانت القهوة والسجائر والماء تدور على النساء وقد سلكت محادثاتهن سبيل «الصبحيات» المألوفة، راح جميل يتأمل السرير النحاسي الذي وُضع خارجاً، ثم دخل إلى البيت ملتفتاً ومهيّئاً مكاناً له، عندما سمع أخته الكبرى تقول:

ـ «الله يديمكم، مش راح نزور ثلاث أيام بزيادة هاليوم، الله يرحمنا ويرحمو، اكل عمرو، واعملوا معروف ما حدا يآجرنا ويلبس أسود...».

وتساءل جميل عن معنى استيقاظه في هذا الصباح الباكر، فقرر العودة إلى النوم، ولما كان المنزل مكتظاً والنازلون فيه شغلوا كل أرائكه وأسرّته فقد حمل لحافاً ومخدّة وخرج لينام على سرير والده النحاسي. ولم يلبث أن ممدّد عليه وتكوّر في وسطه بعد أن غطّى وجهه.

* * *

كثيرات هنّ النساء اللواتي يحلفن أنهن سمعن شخيره، وكثيرات يحلفن أنهنّ سمعن نحيبه. ولكن جميلاً يؤكّد، الآن، أنه لم يغف إذ وجد نفسه نائماً قرب والده الختيار، فأخذ يراقب تنفّسه خائفاً من انقطاعه فجأة.

لبنـــان